

## صدمة التحدفث وفراغ الءءاءة

2019-02-07 مرءضى معاش

يومآ بعء يوم ءزءاء ضروراء التءءءف والعصرنة فف معءمعاءنا بعء هبوب رفاء الءغفراف الكبفره على أءواء العالم مءلّفة فراغات كبفره ومعقءة صءمء المعءمعاء البشرفه بشكل عام وعالمناف الإسلامف بشكل ءاص. فمع اسءمرار وءوء البنفاء الءءءفة القءفمفة وعءم ءطورها وءكاملها مع الءغفراف العالمنفة المءصاعءة ءصبع أسس الءءلف مءءءرة بشكل أكبر وأصعب فف قواعء الفءر والعمل.

وفمكن القول أن الءناقض الكبفر بفن مظاهر الءءءف الشكلف وبقاء ءوءر الءءلف قء ولء صءمة كبفره أءء إلى انءزاع أسس الأصالة والءباء فف المباءئ الأساسفة للءضارة الإسلامفة، والءءول فف مءاهة العصر المءءقم والضعاف فف ءواماء الانءراط فف مظاهر الءضارة الءءءة.

فقد سبب الءءءف الشكلف للمعءمعاء صءماء كبفره كانت نءفءة ءءمفة للانفصام بفن ءطور الشكل وءءلف الءوءر مءلّفة ازءواءفة مءناقضة ضاعء ففما بفنفا الهوفة والأصل والأساس، وكان المولوء مجرد اسءنساخ مقلء بصورة سفئة عن الءضارة الغربفة، ولا بفبعء القول أن ءقفقة المظاهر السلبفة الءف اءءاءء معءمعاءنا مءل العنء والءطرف والءفكك والءبعفة ما هف إلا نءفءة للصدماء النفسفة والفكرفة الءف صاءبء هءه الازءواءفة ءفء عءز الفرف عن اسءفباب الءطور بشكل واع مءفهم ففضم الواقع الءارءف بصورة منطففة ففسءطفع أن فؤقلم سلوكه بصورة مءوازنة وبرؤفة ءقففة لا ءءءعها المظاهر.

ولكن الءف ءصل أن الصءماء الءضارفة اسءطاعء أن ءؤسس لئفسها وءوءاً مءمفزاً فف منطفة الفراع بفن الءوءر والمظهر، لءساهم فف وءوء ءءفء فئمؤ بعشوائفة مسءمرة بعفءاً عن النمؤ الطبفعب للمعءمع والفرف فكرفاً واءءماعفاً وءضارفاً. هءا النمؤ العشوائف فمكن أن نشبهه بوضوء بءلك المءن الكبفره فف بلادنا الءف اءءاءها الءطور الأعمف فأصبءء ءمءء بشكل فوضوف كبفر راسمة لوءة سورفالفة لمءن ءامضة ضاعء بفن الماضف والءاضر ولا ءعرف ماذا فءرف فف ءاءلها

وخارجها.

هذه العشوائية تداخلت في معظم مناحي الحياة لتنمو بشكل متضخم يشبه إلى حد بعيد التضخم الاقتصادي في خطوطه المتقاطعة والمتناثرة عبر بنية اقتصادية متبعثرة منتجة غيوماً سوداء من الغازات السامة أصبحت المتنفس الوحيد الذي يعطي الحياة لأجساد غالبتها الصدمات الحضارية فاستسلمت لقدرة الانفصام وقبلت التمتع بجماليات المظاهر الحديثة للحياة الجديدة.

كيف يمكن لنا أن نتنفس من سموم ما تنتجه الحضارة الغربية ونستهلك ما يبقى من موائدهم مصفقين لإبداعاتهم وحالمين بأبطالهم؟، إلا إذا كان الانتزاع حقيقياً من وجودنا الجوهري، وهذا يعني بشكل واضح إننا تحولنا إلى أشكال هامشية من الوجود الفقير الذي لا يطمح لشيء إلا أن يرى حركة الحضارة الحديثة وتطورها عبر امواج الاطباق المبتوثة بالأقمار الصناعية، فيعزّي نفسه عبر التلذذ بالمشاهدة والاكتفاء بالمراقبة.

لا يمكن لأي مجتمع أو إنسان أن يقبل بجمالية المظهر ويتشدد به، ويتغاضى عن الوضع المزري الذي تشعب به جوهره وداخله، فمع عقم الجوهر وترقق الأسس البنيوية لوجوده يصبح الشكل مجرد هيكل آيل للسقوط وشبح يفتقر إلى تشكيله الخارجي.

لذا لا يمكن للتحديث أن يتحول إلى قضية فاعلة تحقق التطور الحضاري الطبيعي في حياتنا إلا بعد أن يستوعب كافة أجزاء النمو البشري وخصوصاً التحديث في الأسس والقواعد التي يمكن أن يقف عليها أي مجتمع متكامل ونامي في مسيرة طبيعية ومنطقية.

هناك قضيتان أساسيتان في برنامج التحديث المنطقي الذي يمكن أن تسير فيه حركة الإصلاح والتجديد:

القضية الأولى: إشكالية الحرية والانفكاك عن الاستعباد ورفع الاغلال والأصّر.

القضية الثانية: وجود قنوات التماسك والبناء الاجتماعي عبر الحوار الذي يجمع قطاعات المجتمع

في طريق التحديث والإصلاح.

## الحوار بالعنف وعنّف الحوار

كثيرة هي العقبات التي تقف أمام حركة الإصلاح ولكن عندما تتقاطع المصالح بشكل متنافر في المجتمع وتفتقد العقلانية في التعامل مع الآخر يصبح المجتمع في مهب التمزق والتفكك عبر الحوار بالعنف، وفي أدنى درجاته عنف الحوار. فالحوار بالعنف هو التعامل بين الأنداد والأضداد في مجتمع ضاقت صدور أفرادها، فعجز عن استخدام لغة العقل والمنطق والتفاهم.

إن التحديث يعتمد بشكل أساسي على وجود حركة اجتماعية شاملة تشارك فيها القوى والجماعات بعد أن تصل إلى عقد واتفاق مشترك على أهداف واحدة تصب في إطار المصالح المشتركة للجميع.

ولكن البعض آثر أن يتخذ لنفسه بعداً أيديولوجياً مقدساً تحول فيه إلى محور مركزي يفرض على الجميع أن يستسلم له ويدين بأفكاره، فلا مجال حينئذٍ في محيطه التحزبي لوجود الآخر، ولو وجد فإنه قد خرج عن شرعية الأيديولوجية الواحدة. فالفرد أو الجماعة التي تحيط هالة مقدسة بأفكارها وأهدافها لا ترى إلا نفسها وكأن لا وجود لآخرين يعيشون في نفس المجتمع.

وكيف يمكن إصلاح مجتمع يعيش أفرادها وجماعاته في جزر منعزلة قائمة على الانغلاق والجمود في الدوائر الذاتية؟!.

إن التحديث لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تحديث الأفكار والتحول إلى رؤى جديدة تفتح آفاقاً أخرى لعوالم خارج حدودنا فنرى الآخرين عبر عيون جديدة لم تسجن في زناناتها الفكرية القديمة، فالتحديث الفكري يمكن أن يقودنا إلى فهم أفكار الآخرين عبر إيجاد التقارب النفسي أولاً، وإزالة الحواجز ومحاولة دراسة آرائهم بموضوعية، واستبعاد روح التحيز التي تحكم ذواتنا بتعصب مفرط.

والتحديث لا يتم إلا عبر إصلاح العقول التي صدت من انغلاقها على نفسها، ورفضت الانفتاح على

الآخرين.

والتحديث لا يتم إلا عبر إصلاح الأنفس التي تمزقت بالحقد والتعصب الأعمى، فأصبح التطرف الجارف رمز لتفريطها وإفراطها الجاهلي.

إن الحوار المتبادل بين مختلف الفئات والأفكار والاتجاهات بشكل موضوعي يستمع فيه الجميع إلى الآخرين بوضوح وتفهم يمكن أن يؤدي بالنتيجة إلى إيجاد قنوات مشتركة تحقق التفاعل الاجتماعي الحيوي وترسم معالم الإصلاح والتحديث بشكل طبيعي مستمر على ملامح الأمة، وتنشئ أسساً متجذرة من التماسك والتلاحم والوحدة.

يقول تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).

\* مقتطف من مقال نشر في مجلة النبأ-العدد 55- ذو الحجة 1421هـ/آذار 2001م  
تحت عنوان: قضايا الإصلاح والتحديث.. الحرية والحوار